تاريخ علوم النبات والفلاحة عند العرب

الدكتور امام محمد صابر نوفل

كلية زراعة كفر الشيخ ، جامعة طنطا

• المقدمـة •

كان العرب بحق هم البدور تتقد فى الليالى الحالكة السواد ، وليس هناك أدنى شك فى أنهم لعبوا دورا أساسيا وهاما فيما بين القرنين الثامن والثانى عشر فى تقدم العلوم الحديثة رغم تعدد أنواعها ، وتعدد نواحيها ، ويتضح ذلك فيما يلى :

(أ) ترجموا واقتبسوا ما عثروا عليه من تراث علمى خلفه الفراعنة واليونان والهنود ، وأفادوا كثيرا من أعمال مدرسة الاسكندرية ، ونقلوا إلى العربية ما وقعت عليه أيديهم من المعارف الهندية والصينية . ويعتبر دور العرب فى ذلك بالغ الأهمية ، إذ لولاه لضاع هذا التراث العلمى ، ولعفت عليه الآثار ، ولما أمكن للأجيال التالية أن تبنى عليه وأن تطوره .

(ب) بعد أ ن ترجم العرب تراث أسلافهم واستوعبوه جيدا ، بدأوا فى بناء نهضة علمية واسعـة النطاق ، فأضـافـوا نتيجـة لخبرتهم ما عن لهم من آراء ومعلومـات وتحسينـات ونظريات ، وابتكروا فروعا جديدة للعلم ، كما قاموا بدراسات انشائية مكنتهم من الوصول إلى نتائج اكثر دقة عمن سبقوهم . وهكذا قدموا للأجيال التالية قواعد أساسية ، وبنياناً ثقافيا سليما ، وشيدوا عليه النهضات العلمية الحديثة التى كان لها الفضل فيما نراه اليوم من رقى وحضارة .

(ج) لم يؤمن العلماء العرب بالتخصص كما نعرفه اليوم ، ربما لسعة مداركهم ، أو لزيادة فى مشـاكلهم الاقتصـادية والسياسية والاجتماعية ، مما يستلزم زيادة فى معرفتهم لتدعيم نهضتهم واستمـرار تقـدمهم ، وخاصة بعد الفتح الاسلامى . ولهذا كان العالم العربى يدرس العلم من نواحى متعددة ، فمثلا كان أبو بكر الرازى طبيبا وفليسوفا وكيماويا ، كما اشتغل بالرياضة والموسيقى والأنساب . وهكذا كان ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧ م) ، وابن رشـد . وقد كتب هؤلاء وغيرهم موسوعات علمية ظل بعضها يستخدم فى أوروبا حتى القرن السابع عشر بعد الميلاد .

(د) كان العـرب بحق سادة العالم فى هذه الفترة فى مختلف العلوم والفنون لدرجة أن

* القيت فى الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب ، الكويت ١ - ١٤ ديسمبر ١٩٨٣

ثقافتهم وعلومهم طغت على سائر الثقافات المعاصرة لتلك الفترة . وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت اللغة العربية يومئذ هى اللغة الدولية للعلوم ، ويمكننا أن نتصور ذلك إذا علمنا أن حسين بن سينا الذى يُعتبر جالينوس العرب بقى كتابه « القانون فى الطب » مرجعا وحيدا طوال ستة قرون فى آسيا وأفريقيا وأوربا .

(هـ) أنشئت فى أوربا الجامعات خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، ولكنها كانت تحت رحمة رجال الكنيسة ، وقد ترجمت العلوم من العربية إلى اللاتينية لتدرس فى هذه الجامعات . واذا كان جل مؤرخى تاريخ العلوم وتطورها يغفلون عن دور العرب ويغبطونهم حقهم فى هذا المضمار ، فإن مرد ذلك يرجع إلى تعصب أعمى أحيانا أو إلى جهل وعدم إلمام باللغة العربية يمكنهم من دراسة مخطوطات العرب .

وسنتناول فيما يلى فضل العرب على علم النبات ، وعلى التدارى بالنباتات الطبية والعطرية أو ما يعرف بالعقاقير النباتية ، ثم نعرض لتاريخ الفلاحة عند العرب ، وأثرهم عليها وذلك بسرد تاريخ الحدائق عند العرب ، وأيضا فضلهم على زراعة وانتقال الحاصلات البستانية والحقلية من أماكن نشأتها الأصلية فى المنطقة العربية إلى باقى أجزاء العالم .

• أولا : علماء النبات العرب المسلمون •

يذكر كامل (١٩٦٩) أن الإمام عبد الملك بن عبد العزيز البصرى المتوفى سنة ١٤٠ هـ يعتبر أول من كتب عن النباتات من المسلمين . ثم جاء بعده الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٨٠ هـ ، وألف كتابا يحوى أسماء الأشجار والأعشاب والكثير من النباتات . وفى عصر هارون الرشيد ، وقبل سنة ٢١٦ هـ ، أخرج أبو سعيد عبد الملك الأصمعى كتابا عن النبات والشجر ، ومما هو جدير بالذكر أن الأب لويس اليسوعى قام بطبع هذا الكتاب فى سنة ١٩٠٨ م .

ثم جاء أبو يوسف يعقوب بن اسحاق بن السكيت ، وأخرج كتابا آخر عن النبات والشجر ، وتوفى سنة ٢٤٣ هـ . ثم ظهر كتاب « النبات » لأبى حنيفة الينورى الذى توفى سنة ٢٨٢ هـ ، وقد قام كثير من العلماء المسلمين بالاقتباس منه .

وقام أبو على يحيى بن جزلة البغدادى المتوفى سنة ٤٩٣ هـ بإخراج كتاب « منهاج البيان فيما يستعمله الانسان » ويحوى جميع تجارب الأدوية المفردة والمركبة .

ثم ظهر كتاب الشجر الذى ألفه السيد أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن حمدان وذلك فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، وهذا الكتاب ترجمة العالم الألمانى صمويل ناجلبرج Samwel Nagelberg ، وهذا الكتاب كان أول كتاب مورفولوجى نبات فى العالم .

وفى منتصف القرن الخامس الهجرى أخرج الحافظ أبو الحسن المشهور باسم « ابن سيده المرسى » مؤلفا أسماه « المخصص » كتب فيه عن الزراعة والأرض والنبات ، ونمو الشجر والأزهار ، كذلك كتب عن بيئة النبات ونباتات الرمال « الصحراوية » ونباتات الماء وكتب عن العقاقير وغيرها .

وجاء عبد الله بن أحمد الأندلسى العشاب المعروف بابن البيطار المتوفى سنة ٦٤٦ هـ وأخرج كتاب « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » .

ثم ظهر كتاب « المعتمد فى الأدوية المفردة » للملك المظفر المتوفى سنة ٦٩٤ هـ .

وفى أوائل القرن الثامن الهجرى جاء ابن منظور الانصارى المصرى وأخرج كتابا أطلق عليه « لسان العرب » وقد كان شاملا بإيجاز عن كل ما عرف من علوم النباتات الطبية وغير الطبية حتى ذلك الحين .

نبذة عن تاريخ التداوى بالنباتات الطبية عند العرب :

بدأ استعمال العقاقير النباتية (النباتات الطبية) فى التداوى والعلاج عند العرب فى عصر الدولة الأموية ، وبالذات فى عهد الحجاج بن يوسف الثقفى ، حيث كان عنده طبيب خاص اسمه « تيادوق » Theodokos كتاب عن تحضير الأدوية من النباتات الطبية واستخداماته ، وتوفى منذ أكثر من ١٢٠٠ عام .

وكان خالد بن يزيد بن معاوية مولعا بالطب والتداوى بالنباتات الطبية ، فطلب من كثير من العلماء المستوطنين فى مصر ترجمة الكتب المكتوبة باللغات اليونانية والقبطية إلى اللغة العربية .

وفى عصر عمر بن عبد العزيز ظهر طبيب اسمه « ماسرجويه اليونانى اليهودى » وترجم كتاب الأدوية المفردة لجالينوس ، كما أنه ألف كتابا عن العقاقير الطبية ومنافعها ومضارها .

ثم جاءت بعد ذلك الدولة العباسية وقامت فى عصر هذه الدولة نهضة أدبية وعلمية شاملة ، فأمر أبو جعفر المنصور مترجما يسمى « البطريق » أن يترجم كتابا كثيرة عن أبقراط وجالينوس وغيرهم .

وظهر فى عهد هارون الرشيد الطبيب أبو زكريا يوحنا المسيحى الذى كلف بترجمة الكثير من الكتب ، وطاف بلاد الروم بحثا عن كتب الطب القديمة ، وله كتاب عن « تركيب الأدوية المسهلة » ، ومما هو جدير بالذكر أنه يوجد من هذا الكتاب نسخة فى مكتبة اكسفورد بانجلترا .

ثم جاء المأمون وأخذ يجمع جميع الكتب الطبية من حكام وعلماء العالم ، وأخذ يترجم كتب أرسطو وأبقراط وأفلاطون وجالينوس ، وشجع المترجمين وأجزل لهم العطايا ، وفى عهده تمت ترجمة كتاب « الأدوية المسهلة » ، وكتاب الأعشاب النباتية الذى ألفه العالم اليونانى ديسقوريدس « Dioscoridis » ، ويحوى هذا الكتاب سبعة فصول عن الأدوية العطرية ، والنباتات الحريفة ، وأصول النباتات الشوكية والصموغ ، والأدوية التى تستخرج من الحشائش وغيرها ، ومن هذا الكتاب نقل علماء الأندلس أسماء النباتات التى تعرف بها حتى الآن . ومن أشهر المترجمين : أبو زيد حنين بن اسحاق العبادى والمتوفى سنة ٣٦٠ هـ ، ومحمد بن زكريا الراوى الذى ألف كتاب « المدخل فى الطب » وكتاب « الأقرباذين » ، وأحمد بن الأشعث وله كتاب الأدوية المفردة ، وقد نقل داود الأنطاكى هذا الكتاب . ومنهم أيضا أبو القاسم بن عباس الزهراوى وكان طبيبا وجراحا وقد توفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٠٦ م) ، وله كتب فى الأدوية المركبة والمفردة ، وقد استعمل بعض الآلات الجراحية فى الطب .

ومن اشهر علماء العرب فى العقاقير الطبية :

(١) جابر بن حيان (٧٠٠ - ٧٦٥ م) :

وهو طبيب عربى وأول من اشتغل بالكيمياء القديمة ، عاش بالكوفة وبغداد ، وترجمت كتبه التى زاد عددها على الثمانين إلى اللاتينية ، وتعتبر من أهم ما كتب فى الكيمياء فى ذلك العصر ، وقد ترجم بعضها إلى الانجليزية عام ١٦٨٧ م،وأعاد « هولبارد » تحريرها وكتب تقديمها سنة ١٩٢٨ ، وعنى بول كراوس بنشر رسائله . ويعتبر جابر بن حيان المؤسس للمدرسة العربية فى الكيمياء ، وقد كتب فى تحضير المعادن والأملاح والأحماض والقلويات ، كما تناول عمليات الترشيح والبلورة والتسامى والتقطير .

(٢) أبو فخر الرازى (٨٦٥ - ٩٢٥ م) :

وكان أشهر أطباء المسلمين ، شغل منصب مدير مستشفى بغداد ، وظلت مؤلفاته فى الحميات ذات البثور كالحصبة والجدرى من المراجع الأساسية التى اعتمد عليها الأطباء فى غرب أوروبا زمنا طويلا ، كما أن كتابه عن أمراض الأطفال يعتبر مرجعا هاما . وقد ذكر ابن النديم أن للرازى مؤلفات تزيد عن المائة ، علاوة على رسائل عديدة منها عشرون مؤلفا فى الكيمياء .

(٣) ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧ م) :

من أشهر الأطباء العرب ، وتحتفظ كلية الطب بجامعة باريس بصورته هو وأبى الفخر

الرازى ، واسمه الحقيقى « أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا » . وقد ولد فى حران بين دجلة والفرات سنة ٩٨٠ م وتوفى سنة ٤٢٨ هـ فى بغداد ، وقد نقل كثيرا من العلوم الطبية التى خلفها اليونانيون والرومان ، واكتشف الكثير من العقاقير الهندية والعربية الأصل ، وكان له حوالى المائة مؤلف فى فروع العلوم المختلفة ، فقام بترجمة وتلخيص كتب حنين بن اسحق وديسقوريدس Dioscoridis ، والأخير يعتبر أشهر أطباء الأمبراطورية الرومانية وأول من وصف العقاقير النباتية التى كان يجمعها أثناء مصاحبته لجيوش هذه الأمبراطورية ، وقد ألف عنها كتابا فى النباتات الطبية عنوانه : « المواد الطبية » De Materia Medica وهو مرجع قيم فى العقاقير النباتية والحيوانية ، حيث وصف طرق جمعها وحفظها وغشها ، وأوضح ذلك بالرسوم والأشكال ، ويعتبر كتاب ابن سينا « قانون ابن سينا Canone Medecine فى النبات والطب والأدوية » هو المصدر الرئيسى للمعلومات فى القرن الخامس عشر الميلادى . ولقد تعددت نواحى عبقرية ابن سينا فنبغ فى الطب والرياضيات والفلك والهندسة .

(٤) ابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨ م) :

ابن رشد (أبو الوليد محمد بن أحمد) ، فيلسوف وطبيب وفقيه عربى أندلسى ، ولد بقرطبة ، وحذق العلوم الشرعية والعقلية ، وكان قاضيا وسمى بقاضى قرطبة الى جانب تلقيبه بالشارح لشرحه كتب أرسطو بتكليف من « أبى يعقوب يوسف » أمير الموحدين الذى عرفه عن طريق ابن طفيل فأكبره وقربه ، وله فى الطب كتاب « الكليات » وقد توفى بمراكش .

(٥) ابن عمران موسمى بن ميمون (ولد سنة ١١٣٥ م) :

ولد بمدينة قرطبة ، ولما غزاها المسلمون أسلم ، وسافر إلى فلسطين ، ومنها إلى مصر ، وكان الطبيب الخاص للملك الأفضل ابن صلاح الدين . وقد لخص كثيرا من الكتب اليونانية وناقش الكثير مما هو فيها من الأخطاء ، وألف كتاب تدبير الصحة ، وهو أول من فتح الباب للطب النفسى ، وبذلك يعتبر أول طبيب نفسانى فى العالم .

(٦) ابن البيطار (١١٩٧ - ١٢٤٨ م) :

وكان يعيش بأسبانيا ، وقد انتقل إلى مصر فى السنوات العشر الأخيرة من حياته حيث ألف بها كتابه القيم « مفردات الأدوية » ، وذكر به حوالى خمسمائة من النباتات الطبية والعقاقير ، وأعطى وصفا دقيقا لها وكتب ملاحظاته الخاصة عنها .

(٧) داوود الأنطاكى (١٥٣٨ - ١٦٠٠ م) :

وحقيقة اسمه داوود بن عمر الأنطاكى الملقب بالبصير ، كان ضريرا ، وكسيحا بعض الوقت وشفى من مرضه الأخير . وقد ألف كتابه « تذكرة أولى الألباب » التى تعرف باسم تذكرة داوود . وقد جمع فيها الكثير مما يتعلق بالطب والأمراض وعلاجها ، وتذكرة داوود من الألفاظ الشائعة التى تعنى التداوى بالنباتات الطبية حيث إن الكثير منها لايزال يستخدم حتى الآن . وقد توفى بمصر سنة ١٦٠٠ ميلادية .

(٨) ابن الهيثم أبو على الحسن :

من أكبر علماء العرب فى الرياضيات والطبيعيات والطب والفلسفة ، ولد بالبصرة ، ورحل إلى مصر وأقام بها فى عهد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله . ترك تراثا علميا يمتاز بالأصالة والجدية ، ومؤلفاته تبلغ المائتى كتاب ، وله فى الفلك ثمانون كتابا .

(٩) ابو الصلت ، أمية بن عبد العزيز :

ولد فى بلدة « دانية » سنة ٤٦٠ هـ ، وهو من مشاهير الأطباء ، حصل من معرفة الأدب ما لم يدركه غيره من الأدباء ، وكان أوحد عصره فى العلم الرياضى ، أقام بالأندلس مدة ثم أتى إلى مصر سنة ٥١٠ هـ حيث بقى مدة أخرى ، ثم عاد إلى وطنه الأندلس .

(١٠) ابن بطوطة ١٣٠٤ - ١٣٦٩ م :

وقد كانت له رحلات كثيرة ، وذكر بحوثا طريفة ، ودررا ممتعة لما شهده من نباتات طبية وعطرية فى أقاصى الشرق . ويذكر مهران (١٩٦٧) أن كتاب منهاج الاكان ربى المونة Abu-Elmouna والذى طبع فى القرن الثالث عشر من الكتب القيمة فى النباتات الطبية والعطرية حيث يحتوى فصلا خاصا عن طرق زراعة جميع النباتات الطبية .

وعموما على ضوء ماجاء فى النبذة التاريخية عن علماء العرب وعن نهضتهم العلمية واهتمامهم بالنباتات الطبية التى تستطيع أن نقول باطمئنان أنهم قاموا بدراستها ، وقد تعددت تجاربهم الواقعية عنها ، وازدهرت فى عهدهم تجارتها ، وسارت قوافلهم وسفنهم تحمل العقاقير والنباتات الطبية والتوابل والأدوية المختلفة إلى بلاد أوروبا ، ولم يقتصر دورهم على ذلك بل تفننوا فى زراعة النباتات العطرية ، وازدهرت على أيامهم هذه بالإضافة إلى النباتات الطبية .

ويمكن القول أن انتعاش الطب والصيدلة فى معظم البلاد الأوروبية ما هو إلا انعكاس لتقدم علوم النباتات الطبية والعطرية فى بلاد الأندلس التى كان يحكمها المسلمون فى العصور الوسطى ، وحيث كانت الدولة الإسلامية تمتد من الهند وتركستان فى الشرق إلى

مصر وشمال افريقية وأسبانيا فى الغرب ، وكانت قوافل العرب تنقل العطور والعقاقير من الهند والملايو والبحرين وأفغانستان وإيران إلى مصر فأوروبا . وهكذا سطر العرب فصلا رائعا فى التاريخ الفكرى والثقافى والحضارى للعالم أجمع ، ويكفى أن نشير إلى أن العرب قد أحضروا إلى مصر بعض النباتات من البلاد الشرقية وزرعوها فيها لأول مرة ولا تزال موجودة حتى الآن مثل : الكراوية ، النارنج ، البرتقال ، الليمون ، الكزبرة ، العرقسوس ، الهياسنت ، الياسمين ، الفل ، التوت ، الأرز ، قصب السكر ، العناب ، لزعفران « الكروكس » ، السناميكى ، الملوخية ، النيلة (الأنديجوفرا) ، والبلانتاجو . أما القات والبن فلم يكتب لهما النجاح الكبير تحت الظروف المصرية . ولاشك أن الاستعمار فى العصر الحديث قد طمس تلك الصفحات المشرقة من تاريخ العرب .

● (ثانيا) : تاريخ علوم الفلاحة عند العرب ويشمل ذلك تاريخ علوم فلاحة البساتين (الحدائق ـ والفاكهة ـ الخضر) وفلاحة المحاصيل الحقلية ●

(أ) تاريخ الحدائق عند العرب :

يذكر عون ويسرى (١٩٦٢) أن تخطيط الحدائق فى بادية العرب كان قاصرا على الرقعات الضيقة التى تتوفر فيها إمكانيات النماء ، وبظهور الإسلام بدأ تخطيط الحدائق يسير وفق هذا الدين القويم ، ووفق عادات وتقاليد موروثة وأحاسيس مسيطرة على العرب وقد كان الخليفة عمر بن الخطاب يقول « مروا الناس أن يخرجوا إلى الصحارى أيام الربيع ، ليروا كيف يحيى الله الأرض بعد موتها » .

وحينما امتد ظل الدين الإسلامى إلى بعض البقاع التى تغذيها الأنهار مثل دجلة والفرات وبردى وبعض الينابيع ، تطور فن تخطيط الحدائق وفق تلك الإمكانيات ، متأثرا بالبيئة الشرقية التى ظهر فيها الإسلام والتى توفرت فيها الثقافة التخطيطية للحدائق السائدة فى ذلك العصر مما أوجد على مر الزمن تطورا تخطيطيا أصيلا مرتبطا بالعروبة ومميزا بطابعها .

ولقد تأثر الفن العربى سريعا بإمكانيات النمو فى مناطق الفتح الإسلامى وأهمها مصر والأندلس ، وتبعا لما أمدنا به التاريخ نرى فى العصر الفاطمى صورة أصيلة لتطور الفن العرب فى تخطيط الحدائق ، صورة تميزت بوفرة النماء ، وعزة الحكم ، وإمكانيات الدولة النامية التى هدفت إلى ابراز الفن فى صوره المختلفة ، ولعل أبرز مثل لهذا التطور الأصيل هو ما أبدعته الدولة الفاطمية حينما أرادت إبراز المتعة والعزة والمقدرة الخلقية فى حدائق المقطم بالقاهرة ، تلك الحدائق التى رأت الدولة ابراز متعتها فى صورة مادية يتفهمها العصر

ويعجب بها ويحس بأثرها وقوتها بصورة مادية دالة على الثراء والمتعة . ولعل أهم ما يتميز به هذا الفن أن المصمم قد رأى أن يستغل الصورة المادية للمتعة فى إطار مادى عندما كسا جذوع النخيل برقائق الذهب ونثر عليه قطرات الماء ، تلك القطرات العزيزة التى بذلت الدولة الأيوبية فى توفيرها جهودا قامت على رفع الماء من النيل ونقله فى قناة فوق سور العيون فى جزيرة الروضة حتى القلعة . ولقد كان للعروبة أيضا فضلها فى تكوين أصول فنية فى تخطيط الحدائق حينما انتقل الإسلام إلى الأندلس . وهناك تهيأت للفن العربى جميع مقومات إبرازه ، فالطبيعة يانعة والجو معتدل والماء والجاه والسلطان وفير وهم فاتحون مصلحون ، وإمكانيات التنفيذ ميسرة ، لهذا وجد الفن العربى جميع مقومات بروزه وظهوره ، فبرز طراز العرب فى الأندلس Moorish style ، وبما أن تخطيط الحدائق يرتبط بالبيئة والعصر والتقاليد وأساليب ومستوى الشعوب ـ لذا كان هذا الطراز « الفن » أصيلا فى تخطيطاته ومراميه . وفى هذا الفن صورة فريدة من الفكر الإنسانى العربى ، صورة قائمة على وفرة إمكانيات الحكم والحياة ، ومرتبط بالتقاليد العربية الأصيلة القائمة على الحساسية النفسية فى كل ما يرتبط بالشخص وأهله أو ما يعرف بالغيرة الشرقية وبجفاف الحياة السابقة لحياة الحكم والرغبة فى التنفيس عن هذه الجفاف وفق ما يسر فى إمكانيات الحياة .

وقد جعلت الأسوار فى الحدائق أساسا لكل ما يتصل بأهل بيت صاحب الحديقة ، وجعل الطريق إلى البيت جانبيا ، حتى تكون الرؤية جانبية وليست مركزة على مركز الحديقة التى يشرف عليها مسكن صاحبها ، وإمعانا فى التحجب لم يكتفى بالطريق الجانبى ، بل حدد هذا الطريق بالأشجار العالية ذات التفرعات الواسعة مثل السرو ، غير أن هذا الوضع لم يحرم صاحب البيت نفسه من متعة الرؤية الكاملة وذلك لاحتفاظه بالطريق الرئيسى المباشر إلى مسكنه ، وإمعانا فى المتعة وتمثلا بالطبيعة التى حرم منها العربى فى بيئته الأصلية ـ حيث تفتقر إلى رذاذ المطر المتساقط فى أحيان مختلفة من العام ـ رأى العربى فى ظروفه البيئية الجديدة حيث الجاه والمال والسلطان أن يستمتع بما حرمته منه بيئته الأصلية ، فافتعل لنفسه رذاذا ليتمتع بما تصبو إليه نفسه من رؤية المطر ، ولذلك حرص هذا الفن على أن يوفر هذا الرذاذ فى الطريق الرئيسى إلى حرمة المسكن ولم تبرز هذه الصورة فى الطرق الجانبية . وقد انصرف العربى الى تمثيل كل ما يساور أحاسيسه من آثار البيئة وآمال المستقبل . . . حاكم يحكم ، وإمكانيات تنفذ ، وماضى يمثل الشجاعة . . . فيمثله فى حدود إمكانياته بسباع رمزية على مشارف الماء تنثر الماء من أفواهها لتبعث فيها الحياة والبهجة المترتبة على الحركة وخرير الماء . وهناك صورة اخرى تمثل الأحلام،صورة تمثل الدِّن « أوانى الفخار » والذى يبعث النشوة والأحلام والأوهام . الدِّن الذى طالما سمع عنه العربى فى شعر عمر الخيام ، والذى طالما تمثله فى أحلامه ، وتمناه فى خياله ، وقصرت عنه يداه تمسكا بتعاليم الدين حتى إذا حانت له فرصة الحياة وإمكانياتها دفعه حسه وعقله

الباطن إلى تصويره فى تخطيطه بحدائقه ، فإذا به يرمز إلى أمانيه بدنان مرصوصة على الأسوار ، وعلى مسافات متساوية كتب عليها بالذهب شعار الأندلس « ولا غالب إلا الله » ، وكأنه معين دائم يمكن أن ينهل منه كلما أراد ، غير ان كل هذه الطوائف من أساليب الدعة والبذخ واللذة لم تكن ابدا لتلهيه عن خواصه الأصلية كعربى يتميز بالشجاعة والإقدام والمخاطرة. ولهذا لجأ الكثير من العرب إلى تمثيل هذه الشجاعة فى تماثيل تصور صراع السباع مع الضفادع ، كل بمكان متباعد على حوف الفسقية وفى وسطها ، تتقاذف الماء المندفع من أفواهها حول أعمدة محلاة بتيجان مذهبة كتب عليها « بسم الله الرحمن الرحيم ـ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حِوَلا » .

ولعل أهم ما شجع نماء هذا الفن ان دولة الأندلس كانت مزدهرة بالإمكانيات والسلطان ، دولة شرقية قامت فى وسط غربى مزدهر بفن التصوير والزخرفة والنقش والحفر ، فاستهوت فنانى فرنسا وإيطاليا بالمقدرة المالية ، وكان لتجاوب حكام الأندلس فى بذخهم وإمكانياتهم ورغبتهم العربية فى المفاخرة ، ما هيأ لهؤلاء الفنانين الغربيين ميادين الأبداع والانتاج والتطور الفنى ، فكونوا بذلك مزيجا فنيا عربيا غربيا ، وكونوا ثقافة عربية الفكر والأحاسيس ، غربية الإنتاج والتنفيذ،وبهذا تكون طراز جديد للتخطيط تميز بالطابع الأندلسى الذى مثل العروبة أصدق تمثيل . ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا ما أسساً شاركت بالنهوض بمعالم الفنون الغربية فنشأ عن الفن الأندلسى حصارات تخطيطية أوروبية أمريكية تطورت وفق الذوق والتفكير الغربى .

ويذكر شوشان (١٩٥٩) أن الأمير عبد الرحمن أول حاكم عربى للأندلس قد اهتم بتجميل كردفة عاصمة ملكه التى أسسها عام ٧٥٥ م ، فأرسل الوفود لاستيراد النباتات من سوريا والصين والتركستان والهند ، وتسابق خلفاؤه فى تجميل القصور والحدائق الغناء فى مختلف بقاع الأندلس فنعمت بعصر الحكم العربى الذهبى ، وبرزت فى العلوم والفنون مصطبغة بصبغة الإسلام حتى أصبحت قبلة أنظار شعوب أوروبا التى كانت تتخبط فى ظلمة الجاهلية . وقد تجلت حضارة ورقى الأندلس فى تنسيق حدائقها .

ولقد جاء العرب من الشرق يحملون بين طيات نفوسهم حب الجمال الذى ألفوه فى حدائق دمشق ، وكأنما ارادوا أن يعيشوا فى جنة الفردوس التى وصفها الله فى كتابه الكريم بعبارات تجذب إليها القلوب بالظل الوارف على الأرائك ، والماء السارى فى الجداول ، والثمار الدانية القطوف ، وعبير المسك ، إلى غير ذلك من عناصر الجمال التى كون العرب منها صورة حاولوا إخراجها فى موطنهم الجديد فأنشأوا حدائق ذات طابع فارسى فى صوره جديدة متفق مع الظروف التى عاشوا فيه ، ونشأ ما يعرف بطراز العرب فى الأندلس ،

ونجح العرب فى نشر ثقافتهم وفنونهم فاصطبغت أسبانيا بصبغتهم ولم تتحول عنها بعد انتهاء حكم العرب عام ١٤٩٢ م ، بل لبثت متعلقة بالطراز الأندلسى حتى اليوم . ونقل الأسبان المهاجرون إلى الدنيا الجديدة هذا الطراز العربى إلى أمريكا الجنوبية والمكسيك وولاية كاليفورنيا . والطراز العربى هو الشائع فى بناء مساجد المماليك بالقاهرة.وتتلخص مميزات طراز العرب فيما يلى :

(١) ورث الطراز الأندلسى التصميم الهندسى المتناظر ، وتنافر الألوان الزاهية ، واستعمال النباتات العطرية عن الطراز الفارسى الذى ألفه العرب قبل فتح أسبانيا .

(٢) نظرا لكثرة الحروب الداخلية والثورات الأهلية أنشأ العرب حدائقهم على شكل فناء أو صحن يحيط به القصر ، ولا يمكن الوصول إليه إلا من باب القصر . والغرض من هذا التصميم حماية الحاكم وأتباعه من هجوم الأعداء . كذلك أحيطت المدينة بأسوار عالية ذات مداخل يمكن إغلاقها لحماية الأمراء من أعدائهم .

(٣) بدأ العرب يتحررون من تحريم نحت التماثيل واستعملوها فى تزيين نافورات الماء ، كما فى نافورة السباع بقصر الحمراء ، ولكنهم تعمدوا ألا يتقنوا تفاصيل النحت احتراما للدين الحنيف .

(٤) استعملت الأعمدة الرخامية وكانت تمتاز بأن القوس المقام بين كل عمودين يزيد عن نصف دائرة ، أى أن مركزه فى مستوى أعلا من الخط الواصل بين قمتى العمودين .

(٥) زخرفت المنشئات الصناعية كأحواض الماء والنافورات والأرائك وأرضية الفناء والقباب بالقيشانى الملونة بأشكال هندسية .

(٦) كان الماء عنصرا أساسيا فى تنسيق حدائق الأندلس ، فأنشئت أحواض مستطيلة محورها الطولى متعامد مع واجهة البناء فيعكس سطح الماء الهادىء صورته ، وكذلك أنمشئت نافورات ينساب منها الماء ببطء من سطح إلى آخر تحته لتوفير المياه فلا تستنفذ كميات كبيرة منها مثل النافورات التى تقذف الماء فى الهواء ، وكذلك شقت قنوات ضيقة مغطاة بالقيشانى المزخرف تمتد على المحور الوسطى للفناء .

(٧) اقتبس العرب عن الرومان زراعة أشجار الفاكهة ونباتات الزينة فى أصص حتى يمكن التمتع بها فى الحدائق المرصوفة ، وقد رصت نباتات الأصص على السور المرتفع الذى يحيط بحديقة الكازار بأشبيلية .

(٨) أنشأ العرب الحدائق فى المناطق الجبلية فى هيئة مصاطب مستوية محاكين فى ذلك حدائق بابل المعلقة . أما حيث يستوى سطح الأرض كما فى حدائق الفناء Patio المستوية ، فقد بنوا شرفات Terraces متسعة مكشوفة يصل الواحدة منها بالأخرى

بضع درجات من السلالم المزخرفة بالقيشانى ذى الألوان الزاهية .

ويذكر الغيطانى (١٩٦٨) أنه أمكن لأسبانيا أن تفرض على التاريخ طابعا مميزا لحدائقها ذا تقاليد عظيمة ظلت حتى وقتنا هذا مثار إعجاب مصممى الحدائق وروادها مثل حدائق الهمبرا الحمراء Alhambra وحدائق جنراليف (جنة العريف) Generaliff التى صممت على النظام الهندسى وتحوى نبعا من عبقرية التصميم وفلسفة الفن العربى . ومنذ أن فتح العرب أسبانيا فى القرن الثامن ، انتشر الفن العربى فى كل بقعة من بقاعها التى كانت تعتبر حصنا للبلاد الأوربية من أى غزو خارجى ، حتى أن البلاد الأسبانية القريبة من الحدود الفرنسية اصطبغ عليها الطابع العربى عن الطابع الفرنسى فى شتى الفنون .

وقد نقلت فكرة الدهليز Patio من أيام الرومان عن طريق أديرة القرون الوسطى ونشأت الحديقة المغلقة المتصلة تماما بالمنزل مشابهة فى ذلك الحدائق الرومانية ، وكانت الجدران تتميز بلونها الأبيض وبألوان هادئة تتناسق مع لون الخضرة الداكن لأشجار البرتقال وشجيرات الياسمين ، وقد جمعت فى ترتيب جميل نباتات الأصص كجزء من التصميم بعد دهانها بألوان تتناسب مع تصميم ألوان الحديقة كلها بحيث يخرج الإطار النهائى للحديقة وقد اكتمل رونقه وبهاؤه للناظرين .

والدهليز بما يحويه من نافورات وزهور و أشجار يكون عادة صالة كبيرة مفتوحة للهواء والشمس وهو من أهم مميزات الحدائق العربية الأسبانية . وقد يتكرر عدد الدهاليز فى الحديقة الواحدة كما فى حدائق الحمراء حيث نجد الواحد يتلو الآخر فى نظام رتيب يمثل للعرب الفاتحين ما آمنوا به من جنات الخلد التى تجرى من تحتها الأنهار . وقد صحب المسلمون معهم الى أسبانيا حبهم للطبيعة التى كانوا يعيشون فيها أثناء حياة البادية وحبهم للمناظر بعيدة المدى وللهواء الطلق ، وفوق ذلك كله احترامهم وتكريمهم للماء بعد ان علمتهم تجارب الحياة أن الماء هو أثمن شىء لحياة الإنسان ، فأنشأوا قنوات المياه التى ظلت قرونا عديدة وسيلة الرى الوحيدة فى أسبانيا .

وما نراه الآن فى حدائق أمريكا المعاصرة إلا صيحة من ذلك الفن العربى الإسلامى الذى اقتبسوه من حدائق الحمراء بأسبانيا ، كما أن حدائق أمريكا الجنوبية وحدائق كاليفورنيا بالولايات المتحدة لازال يغلب على كثير منها ذلك الطابع العربى الأسبانى ، فمثلا فى بلدة سانتا بربارا وبلدة لاهويا نجد فنون التصميم الأسبانى وقد غلبت على السواد الأعظم من حدائق تلك البلاد الجميلة التى يحج إليها السياح من كل حدب وصوب .

حتى الضوء استعمله المصمم العربى لإظهار جمال الحديقة حين ينتقل من أوجه المياه المنبعثة من النافورات الخارجية إلى أوجه ممرات المنزل المليئة بنباتات الأصص ، وقد انعكس

عليها أضواء غير مباشرة تبين ملامح الجمال فيها ويكسبها عمقا وفتنة توضح أسرار ذلك الجمال .

ولقد تخير العرب النباتات التى يمكن أن تزرع الى جوار المنشئات البنائية لتظهر للأخيرة رونقها ، وهذه ميزة كبيرة انفرد بها المصمم العربى عن غيره فى ربط النباتات بالمبانى المحيطة بها . ومن أشهر أعمالهم التنسيقية بالنباتات أن زرعوا الأسيجة الإطارية Boxing hedges حول نافورات المياه والطرقات وأحواض الزهور والتى اقتبستها عنهم حدائقنا المعاصرة .

وسادت منشآت الأقواس المعمارية فى حدائق العرب الأسبانية لتضفى جمالا إلى المساحات المسطحة فى الحديقة ، فبنيت الأقواس الرخامية فى نهاية الدهليز لتتمشى مع جمال أسيجة الآس Myrtle الإطارية القائمة التى تحيط بنافورات المياه التى تندفع إليها المياه من مصادر غير مرئية أو من أفواه تماثيل حيوانية رخامية ، والتى استوردت أفكار نحتها من الحضارة الفارسية القديمة .

وكما ذكر سابقا أن الماء كان له احترام وتكريم كبيرين عند العرب نسبة لندرته عندهم فى البادية فقد جعلوه قريبا من متناول أيديهم ، فخرجت النافورات يندفع منها الماء سلسبيلا إلى قنوات فى شكل هدير أمواج هادئة . وقد اهتم العرب بذلك حتى لا يركد الماء فى القناة حيث أرشدهم دينهم الإسلامى الحنيف إلى الوضوء بالماء من سمت الرأس الى أخمص القدم ، وأدرك المصمم العربى ذلك فجعل الماء يجرى فى متناول أيديهم ليقوموا فى سهولة بفروض الوضوء والصلاة ، ويمثل تلك المشاعر الوجدانية لله والتأمل والتفكير فى جنات الخلد الذى ذكرها القرآن الكريم فى آياته .

(ب) الخضـــر :

تعتبر المنطقة العربية موطنا لكثير من محاصيل الخضر ، وقد انتقلت منها إلى باقى أجزاء العالم . ويذكر عبد العال وآخرون (١٩٧٥) أن منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط والتى تقع فيها أغلب الدول العربية قد نشأت فيها المحاصيل الآتية : اللفت ، الفجل ، الثوم ، أنواع الكرنب ، الكرات أبو شوشه (الجزائر) ، الفول الرومى (الجزائر) ، الخبازى (شمال افريقيا) ، الخرشوف (ليبيا) ، البقوليات مثل : البسلة ، اللوبيا ، الفاصوليا (شمال افريقيا) ، البنجر ، المقدونس ، الخس (مصر) ، الكرفس ، الشيكوريا ، الهندباء ، الجزر الأبيض ، الروبارب ، والرجلة .

ويذكر صقر (١٩٥٨ / ١٩٥٩) أن موطن البصل هو غرب آسيا من فلسطين إلى الهند . وقد نشأ فى المنطقة العربية أيضا كشك الماز (الهليون أو الاسبرجس) فقد ذكره ابن البيطار ضمن النباتات التى رآها مزروعة فى الحدائق بمصر فى القرن الثالث وشبه أوراقه

بالشبت . وقد أدخل العرب الباذنجان إلى أوروبا عند الفتح الأسبانى ، ثم أخذه الأسبان معهم الى الدنيا الجديدة . وكان الباذنجان قد انتقل من الهند موطنه الأصلى إلى الصين ثم إلى بلاد العرب ، هذا ولو أن العرب قد عرفوا السبانخ (الإسفاناخ) من مدة قديمة كما عرفها الفرس من قبلهم إلا أن موطنها ليس معروفا بالدقة ، وقد أدخلها العرب إلى أوروبا أثناء فتح الأندلس ومن هناك انتشرت فى غرب أوروبا ثم إلى بقية أجزاء العالم .

وتعتبر مصر موطنا للشبت والشمر واليانسون والباميا ، وهذه الأخيرة أدخلها العرب إلى اسبانيا وأخذها الأسبان معهم إلى أمريكا الجنوبية ، كما أخذها الزنوج إلى أمريكا الشمالية .

ويذكر استينو وآخرون (١٩٦٣) أن مصر تعتبر موطناً لاثنى عشر نوعا من الخضر منذ الفراعنة ، وهى الأسبرجس والبصل والبسلة والبطيخ والخس والخيار والفجل والفول الرومى والسلق والكرفس والكرنب والقثاء . وقد دخلت زراعة الباميا والمقدونس فى عصر البطالمة ، وزرع القلقاس فى العصر اليونانى .

وقد زار مصر أيام صلاح الدين الأيوبى (العصر الأيوبى ١١٧١ م) العالم عبد اللطيف البغدادى وكتب عن النباتات فى مصر فى مرجعه « الإفادة والاعتبار » وذكر معلومات قيمة عن القلقاس وانواع البطيخ والقثاء وعبد اللاوى (العجور) والقرع .

وأثناء العصر المملوكى (١٢٥٠ م) شرح المؤرخ المقريزى فى خططه المحاصيل المصرية ، وأشار الى زراعة القلقاس مع القصب ، ثم ذكر الباذنجان والخس والفجل والكرنب واللفت . وذكر أبو العباس القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » : أن من مزروعات مصر البسلة والبصل والبطيخ والقثاء على اختلاف أنواعها والباذنجان والثوم والكرات والفجل واللفت والقرنبيط والقلقاس والملوخية والهليون . وأثناء العصر العثمانى (١٥١٧ م) دخلت زراعة البطاطا والطماطم ، وبالإضافة إلى ما تقدم من أنواع الخضر فإنه زرعت الخيار والجزر واللوبيا خلال العصر العربى (٦٤٠ - ١٥١٧ م) .

(ج) الفاكهة والنخيل :

عرفت المنطقة العربية بزراعة الفاكهة من قديم الزمان حيث تأصلت فيها أصناف كثيرة عالية الجودة كما أدخل إليها على مر السنين معظم الأصناف العالمية الحديثة ، وقد لقى معظمها درجة عالية من النجاح فى بلد عربى أو آخر . ويذكر العزونى (١٩٦٤) أن الموطن الأصلى للبن هو جنوب شبه الجزيرة العربية فى اليمن حيث جاء إليها من الحبشة (أثيوبيا) ، أما التين والزيتون فموطنهما البحر الأبيض المتوسط ومنها انتشرا إلى الشرق الأوسط (مصر وسوريا وتركيا) ، ثم انتقلا منها إلى أوروبا حيث أدخلت إلى أسبانيا والبرتغال الأصناف الفاخرة منهما ، والتى لم تكن معروفة قبل الفتح الإسلامى لتلك المناطق . وقد ارتفع شأن زراعة الفاكهة فى البلاد العربية وسواحل البحر الأبيض وأسبانيا

بعد الفتح الإسلامى ، وانتقل الكثير من أنواع الفاكهة الآسيوية والأفريقية إلى سواحل أوروبا وشواطئها والقارات الحديثة .

ويرجع الفضل إلى الفتح الاسلامى فى استرجاع مكانة وتقدم زراعة الفاكهة فى البلاد العربية وعلى الأخص مصر ، ولو أن أحوال هذا النوع من الزراعة قد تدهور بصفة خاصة أثناء الفتح العثمانى لسوء الإدارة والإجحاف بالأهالى . وبالنسبة للفاكهة الحمضية (الموالح) يذكر العزونى (١٩٦٧) أن الفرس والرومان والعرب قد أدخلوا كثيرا من أصناف الموالح فى الأقطار التى دانت لهم . كما يرجع الفضل إلى ملاحى العرب وجنوا والبرتغال وأسبانيا فى نشر أصناف كثيرة من الموالح فى البلاد التى كانوا يتبادلون معها التجارة وعلى الأخص حوض البحر الأبيض المتوسط وجنوب أوروبا . ويعتبر عصر الأمبراطورية العربية الإسلامية هو المبدأ الفعلى لانتشار زراعة الموالح فى أنحاء البحر الأبيض المتوسط حيث لاتزال ذات أهمية قصوى . وقد ذكر المسعودى (١٩٤٣) فى كتابه « المروج الخضراء » مايثبت انتشار زراعة الكثير من أصناف الموالح وعلى الأخص « النارنج » فى أنحاء الأمبراطورية العربية من البصرة الى أسبانيا . وقد أوضح « جالسيو » Galesio فى مؤلفاته القديمة : أن العرب قد قاموا بنقل النارنج والليمون الأضاليا والليمون الهندى والبلدى إلى بلاد العجم وفلسطين ثم إلى شمال أفريقيا وأسبانيا .

ويذكر بغدادى (١٩٦٤) أن الرمان انتشر من شبه الجزيرة العربية عن طريق الخليج العربى ، ومنها بواسطة الرحالة إلى شمال أفريقيا وأسبانيا أثناء الفتح العربى ، ومنها إلى غالبية حوض البحر المتوسط وأمريكا بعد اكتشافها . كما تعتبر الجزيرة العربية هو الموطن الأصلى للجميز ، وقد انتشر منها إلى مصر وشمال أفريقيا وبلاد الشام ، أما الزبدية « الأفوكادو » فإن موطنها هو الجزائر . وتعتبر سوريا هى الموطن الاصلى للفستق وقد انتشر منها إلى جنوب شرقى آسيا الصغرى وانتشرت زراعته فى أوروبا (آسيا واليونان وجنوب فرنسا) . ويرجع الفضل للعرب فى إدخال زراعة الموز إلى مصر ابان الفتح الإسلامى لها . اما نخيل التمر فإن البلاد العربية هى الموطن الأصلى له . ويذكر البكر (١٩٧٢) أن التمر هى الشجرة الأولى التى رافقت العرب فى بلادهم وفى الأقطار التى فتحوها وأقاموا فيها فكانت لهم خير نعمة .

ويذكر العالم الإيطالى ادواردو بيكارى Odoardo Beccari الذى يعتبر حجة فى دراسة العائلة النخيلية من النبات أن موطن النخل الأصلى هو الخليج العربى ، وقد بنى دليله على ذلك بقوله : « هناك جنس من النخيل لا ينتعش نموه إلا فى المناطق شبه الاستوائية حيث تندر الأمطار تتطلب جذوره وفرة الرطوبة ويقاوم الملوحة لحد بعيد » ، فلا تتوفر هذه

الصفات إلا فى المنطقة الكائنة غرب الهند وجنوب إيران أو فى الساحل الغربى للخليج العربى .

وقد حبا الله شجرة النخل بفضائل كثيرة حيث كانت مصدر خير وبركة ، وقد أشارت الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة إلى ما للنخل من منزلة عالية بين بقية الأشجار ، قال تعالى : « والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد » . وقد ألفت عن النخل والتمر فى اللغة العربية كتب ورسائل كثيرة وأشهرها :

(١) « كتاب التمر » لأبى زيد سعيد بن أوس الأنصارى البصرى المتوفى سنة ٢١٥ هـ (٨٣٠ م) .

(٢) « كتاب النخل والكرم » لأبى سعيد عبد الملك بن قريب المعروف بالأصمعى والمتوفى فى البصرة سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) ، وهذا الكتاب نشرة المستشرق هفنر A.Haffner والأب لويس شيخو فى مجموعتيهما الموسوعة « البلاغة فى شذور اللغة » ، الطبعة الثانية ببيروت سنة ١٩١٤ (ص ٦٤ ـ ٧٢) .

(٣) « كتاب صفة النخل » لمحمد بن زياد المعروف بابن الأعرابى الكوفى المتوفى سنة ٢٣١ هـ (٨٤٥ م) .

(٤) « كتاب الزرع والنخل » لعمرو بن بحر الصعيدى المعروف بالجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ (٨٤٥ م) .

(٥) « كتاب الزرع والنخل » لأبى أحمد بن حاتم الباهلى ، أقام ببغداد وتوفى سنة ٢٣١ هـ (٨٤٥ م) .

(٦) « كتاب النخلة أو كتاب النخل » لأبى حاتم السجستانى نزيل البصرة المتوفى سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٨ م) عن المستشرق لاغومينا B.Legumina ونشر فى مدينة بلرمو فى صقلية سنة ١٨٧٣ م .

(٧) « كتاب الزرع والنبات والنخل وأنواع الشجر » للمفضل بن سلمة الضبى البغدادى المتوفى سنة ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م) .

(٨) « كتاب النخل » وهو قسم من كتاب « المخصص » لابن سيده الاندلسى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٥ م) .

(٩) « مقالة فى النخل » لموفق الدين عبد اللطيف البغدادى المتوفى سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣١ م) ، ألفها بمصر سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) .

(١٠) « جنى النحلة فى كيفية غرس النخلة » لأمين بن حسن حلوانى المدنى من أهل المائة الثالثة عشر وأوائل الرابعة عشر للهجرة ، وهى رسالة طبعت بالحجر فى آخر كتاب « مختصر طالع السعود ، بطيب أخبار الوالى داود » .

(١١) « شرح الصدور فى النخيل والتمور » أخرجه الشيخ قاسم القيسى .

وذكر الجاحظ أنهم أحصوا أصناف نخل البصرة دون نخل المدينة ودون مصر واليمامة والبحرين وعمان وفارس وكرمان ودون الكوفة وسوارها وخيبر وذواتها والأهواز وما بها أيام المعتصم وإذا بها ثلاثمائة وستون ضربا . وذكر أبو حنيفة الدينورى فى مؤلفه : « كتاب النبات » ، « أن كل ما لا يعرف اسمه من التمر فهو دقل واحده دَقْلَة وجمعها الأدقال » . وقد أشار محمد بن أحمد المطهر الأزدى فى كتابه : « حكاية أبى القاسم البغدادى » لجملة أنواع من التمور العراقية المشهورة فى بغداد فى المائة الرابعة للهجرة . وجاء فى كتاب « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » لصاحبه شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء الشامى المقدسى المعروف بالبشاورى ، وهو من أهل المائة الرابعة للهجرة بالبصرة من أجناس التمور تسعة وأربعون ولا ينقطع الرطب من البصرة إلا شهرين .

ولقد وصف خالد بن صفوان لعبد الملك بن مروان الخليفة الأموى فى الإشارة بمحاسن البصرة « أوله الرطب وأوسطه العنب وآخره القصب ، فأما الرطب عندنا فمن النخل فى مباركه كالزيتون عندكم فى منابته : هذا فى أفنانه كذاك على أغصانه . هذا فى زمانه كذاك فى آياته من الراسخات ، فى الوحل المُطْعِمَاتَ فى المَحْل الملقحات بالفحل ، يخرجن أسقاطا عظاماً وأوساطاً ضخاما كأنما ملئت رباطا ثم يتفلقن عن قضبان الفضة منظومة باللؤلؤ الأبيض ثم تتبدل قضبان الذهب منظومة بالزبرجد الأخضر تصير ياقوتا أحمرا وأصفرا ثم تصير عسلا فى شنة من سماء ليست بقربة ولا إناء حولها المذاب ودونها الحراب ـ لا يقربها الذباب مرفوعة من التراب ثم تصير ذهبا فى كيسة الرجال يستعان بها على العيال »

وذكر ياقوت الحموى فى سياق كلامه على البصرة : « قال الأصمعى ولما نزل عتبة بن غزوان الخريبة ولد بها عبد الرحمن بن أبى بكره وهو أول مولود ولد بالبصرة ، فنحر أبوه جزورا أشبع منها أهل البصرة . وكان تمصير البصرة فى سنة أربعة عشرة قبل الكوفة بستة أشهر . وكان أبو بكر أول من غرس النخل بالبصرة ، وقال هذه أرض نخل ثم غرس الناس بعده »

وقد أشار ابن الكَلْبِىْ وغيره من القدامى إلى المواضع التى قدسها الجاهليون لوجود الأشجار المقدسة فيها ومنها نخلة نجران « وهى نخلة عظيمة كان أهل البلد من الأعراب يتعبدون لها ولها عيد فى كل سنة ، فإذا كان العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحلى النساء فخرجوا إليها يوما وعكفوا عليها يوما ، أما الدافع الى عبادتها فهو ضخامتها وقوتها وثمرها الكثير ونفعها الغزير » .

(د) فلاحة المحاصيل الحقلية :

يذكر الخطاب (١٩٦١ / ١٩٦٢) أن الشعير قد نشأ فى العراق فى عصور ماقبل التاريخ ، كذا وجدت فى حفائر قدماء المصريين بذور منه مع بذور الذرة الرفيعة . وقد

عرفت مصر ومنطقة حوض البحر الأبيض المتوسط حيث تقع أغلب الدول العربية بأنها منتج عظيم للقمح وكثير من البقوليات منذ العصور الوسطى القديمة . وهذه المنطقة تعتبر الموطن الأصلى لكثير من المحاصيل الحقلية مثل القمح الصلد والشوفان التركى والشعير والعدس والفول البلدى والبرسيم الأبيض والأحمر .

كما أن منطقة الحبشة وإرتيريا والصومال هى أغزر منطقة بالأقماح الهامة وتعد موطنا لعدد كبير من المحاصيل الزراعية مثل القمح الصلد والقمح الحبشى ذو الصفين والقمح البولونى والشعير والذرة الرفيعة والحمص والعدس والفول والحلبة والجلبان والترمس والقرطم والسمسم والخروع والكتان . وبالنسبة للفول البلدى فيعتقد أنه قد نشأ فى مصر أو السودان أو الجزائر ، أما الفول السودانى فقد أدخل من أمريكا الجنوبية (البرازيل وبيرو) إلى مصر والسودان ، لذا سمى باسمه الحالى . ويرجع الفضل للعرب فى إدخال قصب السكر إلى مصر ومراكش وأسبانيا وصقلية حيث وصل إلى جزيرة العرب فى القرن السادس ومنها انتقل إلى هذه المناطق وشتى بقاع حوض البحر المتوسط وقد انتقل فى القرن التاسع إلى زنزبار .

• المـراجـع •

(١) استينو ، ك . ر . ، عز الدين فراج ، م . ع . ا . محمد ، احمد رضوان ، وريد عبد البر (١٩٦٣) انتاج الخضر ، الجزء الأول والجزء الثانى . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ص ٣ ، ٥ ، ٦ (الجزء الأول) ، ص ٥٥٥ ، ٦٢٩ ، ٦٣٧ (الجزء الثانى) .

(٢) البكر ، عبد الجبار (١٩٧٢) ، نخلة التمر ، ماضيها وحاضرها والجديد فى زراعتها وصناعتها وتجارتها . مطبعة العانى ، بغداد ، ص ٢٧ ـ ٣٠ .

(٣) الخطاب ، هـ . ا . (١٩٦١ / ١٩٦٢) أسس زراعة المحاصيل ، الطبعة الأولى . مطبعة العلوم ، القاهرة ، ص ٢٣ ـ ٢٤ .

(٤) العزونى ، م . م . (١٩٦٤) أساسيات زراعة وإكثار أشجار الفاكهة ، الطبعة الثانية . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ص ٤ .

(٥) العزونى ، م . م . (١٩٦٧) إنتاج الفاكهة الحمضية « الموالح » و تجهيز وتعبئة ثمارها ، الطبعة الثانية . مطبعة العلوم ، القاهرة ، ص ٣ .

(٦) الغيطانى ، م . ى . (١٩٦٨) الزهور ونباتات الزينة وتنسيق الحدائق ، الطبعة الأولى . مكتبة دار المعارف ، القاهرة ، ص ٥٨٤ ـ ٥٨٦ .

(٧) بغدادى ، ح . ا . ، ف . ع . ا . منيسى (١٩٦٤) الفاكهة وطرق إنتاجها . دار المعارف ، القاهرة ، ص ٣٢٣ ، ٤٧٥ ، ٥٥٣ ، ٦٠٦ ، ٩٢٨ .

(٨) شوشان ، ع .م . (١٩٥٩) تنسيق الحدائق،الطبعة الأولى . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ص ٢٤ ـ ٢٦ .

(٩) صقر ، أ . م . (١٩٥٨ ـ ١٩٥٩) محاصيل الخضر ، الطبعة الثالثة . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ص ٢١١ ، ٣٧٤ ، ٣٩٤ ، ٤٥٤ ، ٥٢٠ .

(١٠) عبد العال ، ز . ا . ، ع . ا . خلف الله ، ومحمد الشال ، ومحمد عبد القادر (١٩٧٥) الخضر ، الجزء الأول ، الأساسيات . دار المطبوعات الجديدة ،

(١١) عون ، ح . أ . س . ، م . ف . يسرى (١٩٦٢) علم الزينة التطبيقى ، تكاثر وتربية النباتات وتنسيق الحدائق ، والمعارض الإقليمية ، الجزء الثانى . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ص ١٧ ـ ٢٠ .

(١٢) كامل ، مصطفى (١٩٦٩) النباتات الطبية واستخداماتها والفوائد الطبية فى النبات ، الطبعة الثانية . المطبعة التجارية الحديثة ، الظاهر ، القاهرة ، ص ١٠ ـ ١٨ .